شرح قصيدة المتنبي في رثاء جدته

إن السبب الذي دفع المتنبي لكتابة هذه القصيدة هو شدة تأثره وحزنه على جدته التي ماتت بسببه، فقد كانت جدته شديدة التعلق به لدرجة أنها قد ماتت من فرحها عندما وصلها منه رسالة بعد طول انتظارها له وشوقها الكبير الذي تزامن مع مرضها بالحمّى، وفيما يأتي نقدم لكم شرحاً لأبيات هذه القصيدة:

- ألا لا أُري الأحداثَ حَمْدًا ولا ذمّا فما بَطْشُها جَهْلًا ولا كَفُّها حِلْما

لا أبدي لحوادث الدهر ومصائبه إساءةً أو ذمًّا ولا أعترض على أحكام القدر، وأيضاً لا أثني عليها إذا شملتني بحلمها وكفّت أذاها عني، لأن الله تعالى هو الذي قدر تلك الحادثات وليس لنا من الأمر من بعده شيء.

- إلى مثلِ ما كانَ الفتى مَرْجِعُ الفتى يعودُ كما أُبدي، ويُكْري كما أَرْمى

فكل إنسان منّا يرجع إلى مثل ما كان عليه، يكون ميتاً ثم يعود ميتاً، ويعود إلى حالته الأولى كما أُبدئ منها، وإذا بلغ الإنسان الغاية من العمر بدأ عمره ينقص إلى أن يعود إلى ما كان عليه ابتداءً من العدم.

- لكِ اللهُ منْ مَفْجوعةٍ بِحبيبِها قتيلةِ شوقٍ غيرَ مُلْحِقِها وَصْما

أسأل الله أن يتغمدك برحمته يا جدتي فقد كانت سبب موتك هو شوقك بحبيبك وحبك الشديد له، وهذا الحب لا يلحق بك العيب والعار لأنه موجه لحفيدك وهو حب طاهر فطريّ.

- بكيتُ عليها خِيفةً في حياتِها وذاقَ كلانا ثُكْلَ صاحبِه قِدْما

ولم تكن جدتي هي التي تبكي شوقاً لي فقط فقد كنت أبكي عليها في حياتها حبًّا في لقائها أو خوفًا من فقدها، وها هي حوادث الزمن قد فرّقت بيننا، وتغربتُ عنها فذاق كلٌّ منا فَقْدَ صاحبه قبل الموت.

- عَرَفتُ اللَيالي قَبلَ ما صَنَعَتْ بِنا فَلَمّا دَهَتني لَم تَزدني بِها عِلما

وكنت أعلم من قبل بحوادث الدهر، وكيف أنها تفرق بين الأحبة قبل أن تصنع بنا هذا التفريق، وعندمي أتتني تلك المصيبة لم تزدني علماً بتلك المصائب لأنني كنت أعرف ذلك منها مسبقاً.

- أَتاها كِتابي بَعدَ يَأسٍ وَتَرْحَةٍ فَماتَتْ سُرورًا بي فَمِتُّ بِها غمّا

ولقد كان سبب موت جدتي أنني قد أرسلت لها رسالة أطمئنها بها عني، بعد أن أنهكها الشوق والوجد لملاقاتي، وعندما تلقت تلك الرسالة حثْ بها فرحًا شديدًا كان أقوى من أن يحتملَه قلبُها الضعيف، فماتتْ من شدة الفرح والسرور، ولكنها بعدما ماتت متّ أنا من الحزن والأسى عليها لأنني كنت السبب في موتها.

- حَرامٌ عَلى قَلبي السُرورُ فَإِنَّني أَعُدُّ الَّذي ماتَت بِهِ بَعدَها سُمّا

وبعد أن كنت السبب في موت جدتي أشعر بأن الفرح والسرور صار محرماً عليّ وق صرت أعدّ الفرح والسرور الذي قتلها، بمثابة السمّ فأتجنبه وأحرمه على نفسي.

- رَقا دَمعُها الجاري وَجَفَّتْ جُفونُها وَفارَقَ حُبّي قَلبَها بَعدَ ما أَدمى

لقد كانت جدتي تبكي عليَّ وتحزن بسببي، وعندما جاءها الموت أراحها مني ومن العذاب الذي كان ينالها بسببي فقد انقطع ما كان يجري من دمعها على فراقي ويبست جفونها وفارق حبي قلبها بعد ما جرحه وأسال دمه.

- وَلَم يُسْلِها إلّا المَنايا وَإِنَّما أَشَدُّ مِنَ السُقمِ الَّذي أَذهَبَ السُقما

وكانت شديدة التعلق بي حتى أنها لم ينسها محبتي إلا الموت الذي هو أشد من السقم الذي كان بها، فهي لم تتخلى عن العذاب الذي كان ينالها بسببي حتى أتاها ما هو أشد وأعظم منه وهو الموت.

- وَكُنتُ قُبَيلَ المَوتِ أَستَعظِمُ النَوى فَقَد صارَتِ الصُغرى الَّتي كانَتِ العُظمى

وكنت قبل أن تموت جدتي أستعظم فراقها وأظنه من الأهوال العظيمة كما كانت تفعل، ولكن عندما أخذها الموت صارت حادثة الفراق صغيرة، بعد أنْ كانت عظيمة، فموتها كان أعظم بكثير من فراقها وهي على قيد الحياة.

- هَبيني أَخَذتُ الثَأرَ فيكِ مِنَ العِدا فَكَيفَ بِأَخذِ الثَأرِ فيكِ مِنَ الحُمّى

تأكدي يا جدتي لو أن سبب موتك الأعداء لكنت أخذت بثأري منهم، ولكن سبب موتك هو المرض والحمّى التي أصابتك من شوقك إليّ فكيف يمكنني أن آخذ بثأري منها، وهي العدو الذي لا سبيل إليه ولا قدرة عليه.

- وَما انسَدَّتِ الدُنيا عَلَيَّ لِضيقِها وَلَكِنَّ طَرْفًا لا أَراكِ بِهِ أَعمى

وبعد موتك يا جدتي صارت الحياة مغلقة ضيقة رغم كبرها، فلم يكن ذلك الشعور بسبب ضيق الحياة، وإنما بتّ مثل الأعمى الذي فقد بصره بعد موتك.

- تَغَرَّبَ لا مُستَعظِمًا غَيرَ نَفسِهِ وَلا قابِلاً إِلّا لِخالِقِهِ حُكْما

وفي هذا البيت يعلل الشاعر سبب خروجه من بلده وابتعاده عن جدته، فهو قد خرج من بلاده لأنه لا يستعظم أحدًا غير نفسه، ولا يرى أحدًا فوقه، يقبل حكم أحد عليه إلا حكم الله الذي خلقه.

- ولا سالِكًا إِلّا فُؤادَ عَجاجَةٍ وَلا واجِدًا إِلّا لِمَكرُمَةٍ طَعما

وأن الشاعر لم يسلك في غيابه عن جدته إلا الطرق المؤدية إلى الحروب والمعارك ولم يستلذ إلا بطعم تلك المعارك التي هي من المكارم والأمور العظيمة في نظر الشاعر.

- يَقولونَ لي: ما أَنتَ في كُلِّ بَلدَةٍ؟ وَما تَبتَغي؟، ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى

ويسألونني الناس في مكان أنزل به وقد تعجبوا من كثرة سفري وترحالي، ما أنت؟ وما الذي تبحث عنه أو تنوي الوصول إليه، فأجيبهم: إن ما أطلبه أجلُّ من أن يذكر اسمه ويذاع سرّه.